أثر المـــرأة
فى على محمود طه
الأســـتاذ إدوارد حنا سعد

الحرمان من المرأة — كدافع نفسى — ليس خيراً فى ذاته ولا شراً ؛ ولـكن الخير أو الشر إنما يتعلقان بالوسيلة التى يتبعها لإشباع رغباته : وهو فى الفن خير محض لأنه كان نبعاً فياضا استقى منه اللهمون وخرجوا على الناس بذخائر خالدة على الزمن

والأدب المصرى مدين للحرمان بنبوغ الشاعر الرقيق الأستاذ على محمود طه ، فقد لمس نفسه الحساسة فأذكى شاعريتها ومرّ على قيثاره الشاجى بأعذب الألحان

على أنه مما يلفت النظر فى الأدب المصرى المعاصر ذلك التباين الواضح بين ضآلة أثر الحرمان فى نتاج الأدباء المعاصرين ممن نسميهم شيوخ الأدب ... وعمقه ووضوحه فى نتاج الطائفة التى تأخرت عنهم فى السن أو تاريخ الظهور الأدبى ، ومرجع ذلك فيما أعتقد إلى تحجب المرأة قبل الحرب الماضية ، ثم ثورتها على الحجاب بعيد تلك الحرب ، واشتراكها فى كثير من مناحى الحياة الاجتماعية

* * *

قد ينشأ الحرمان عن خيبة قوية فى حب قوى فيكون من أثره ولوع صاحبه بإعلان عدائه للمرأة ، فإذا وجد أن فى ذلك منافاة لما درج عليه الناس اندفع بطريقة لاشعورية إلى تسفيه الآراء الشائعة والتعالى بقيمته الذاتية . وأثر هذا الضرب من الحرمان شديد الوضوح فى الأستاذ توفيق الحكيم عدو المرأة وصاحب الرأى المعروف فى تفضيل الجاهلة على المتعلمة كزوجة ، وكاتب المقال الذى يقول فيه إن الزواج من أربع نساء أمر تحتمه الطبيعة ، وذلك حين رأى التفكير متجهاً إلى سن تشريع يمنع ذلك إلا عند الميسرة وضمان العدل بين الزوجات . ثم يقول عن نفسه إنه (خالق) ، وعن الأشخاص الذين يصورهم فى قصصه إنهم مخلوقاته ، ويقول عن أحد قرائه (زارنى هذا الطبيب الفاضل ثلاث مرات دون أن يحظى برؤيتى)

وقد يكون الحرمان ناشئا عن خيبة فى إنشاء علاقات غرامية فى بحر الشباب ، فيولع صاحبه بالتحدث عن علاقات غرامية موهومة أو مبالغ فيها ؛ وقد يصدر كتابا — كما فعل الأستاذ الصاوى — يتحدث فيه عن حياة قلبه وتكون عناوين فصوله : « وأما السابعة ... وأما الثامنة . . وأما التاسعة ».

وقد يولع الشاب بفتاة من طبقه معينة ولا تستجيب لغرامه فيكون منه قصصى كالأستاذ محمود كامل معظم بطلات قصصه من خريجات المدارس الفرنسية ، وكلهن من بنات الباشاوات وعلى الأخص كبار الضباط المتقاعدين . ولـكل فتاة من هؤلاء حب يُشترط فيه أن يكون محاميا له إلى جانب مهنته شهرة أدبية أو فنية وله سيارة صغيرة يقودها بنفسه

* * *

هذه القدمة لازمة لـكى نفهم منها فهما واضحا أثر المرأة فى الأستاذ على طه ، ففى نفسه الشاعرة رواسب من حب خاب ، وعلاقات فشل فى إنشائها ، وطبقة لم تلتفت إليه بناتها هى على الأغلب طبقة الفنانات . هذه الرواسب كونت منه رجلا فيه من توفيق الحكيم بعض تعاليه ، وفيه من الصاوى بعض تفاخره ، وفيه من محمود كامل اهتمامه بطبقة معينة تبدو من كثرة حديثه عن مخادع المغنيات والراقصات

وقد امتزجت هـذه العناصر وتفاعلت فإذا به فى شعره — وقد يكون فى حياته الخاصة — زير نساء يطلب المرأة لأنها إحدى النساء ، وليس بعاشق يميز امرأة واحدة من دون النساء[1]

والمفروض فى زير النساء أنه رجل مستهتر ، قوى ، كثير التنقل بين (الحبيبات) ، مشغول البال بالمرأة ، شديد الالتفات إلى نواحى جمالها وزينتها ، محبوب منها وأنيق

وكل هذه الصور واضحة فى شعر على طه ونثره أشد وضوح فهو مستهتر لا يبالى أن يقول :

حلفتُ بالخمر والنســـاء ومجلس الشعر والغنـــاء

أو يقول :

فاعذرى الروح إن طغى واعذرى الجسم إن ثار
ثمـــر ناضج الجـــنى كيف لا تقطف الثمـــر

وهو رجل قوى ، استغفر الله بل فتى قوى ، يقول عن زملائه ركاب السفينة « كانوا يعجبون من هذا الفتى الأسمر الذى يقتحم غرفة المائدة ليملأ معدته بالطعام بينما هم مستلقون على ظهورهم

(١) للأستاذ العقاد فى كتابه شاعر الغزل بحث طريف فى هذا الموضوع ، أرجو أن يعود إليه من فاته الاطلاع عليه

من دوار البحر أو ممسكون بمعداتهم من الألم والاضطراب ! »
ويقول :

الثلاثون قد مضت في التياهات والهذر

فهذه الصورة قد تتفق مع صورة دون چوان ، ولكنها قد لا تتفق مع الحقيقة . ففي مقال الأستاذ الزيات عن أرواح وأشباح يقول : « وبين اللقيا الأولى للصديق والقراءة الأخيرة للشاعر إحدى وعشرون سنة » . « وكان إذ ذاك في إبان شبابه وكنت في عنفوان شبابي » ومن هذا يتضح أن لفظة (الثلاثون) هذه لم تأت إلا لضرورة الشعر

ثم هو رجل كثير التنقل بين الحبيبات ، فهو في الجندول مع البولونية الحسناء ، وهو في بحيرة كومو مع الأديبة الأمريكية الفاتنة ، وهو على الرين مع « صديقة سويسرية التقى بها في ذلك الجو الساحر الخ ... وهذا بالطبع عدا عذارى وادي النخيل وقاهرياته الغرر

وهو مشغول البال بالمرأة يغازلها في كل مكان ؛ وقد يغازلها وإلى جانبها زوجها (الليلة الأولى في أرواح شاردة) وكتبه كلها فياضة بهذا الاهتمام الذي يقيمه ويقعده ؛ ولكني أود أن ألفت النظر إلى نشيده الأفريقي (عودة المحارب) الذي يقول فيه :

حين ألقى زوجي على باب كوخي وأناغي على ذراعيّ طفلي

فهذا التصوير الصادق للقلب الظمآن إلى حنان الأسرة لم ينبع من سمادير الاهتمام بالمرأة على العموم ، ذلك الاهتمام الذي يملأ قلب الشاعر ، فيقول على لسان ذلك المحارب العائد إلى زوجه وطفله :

يا عذاري القبيل أنتن للمجد (م) على عفة صواحب بذل
حسبُ روحي الظامي وحسب جراحي
رشفةٌ من عيونكن النجل
وابتساماتكن فوق شفاهٍ بمعاني الحياة كم أومأت لي

وصحيح أن البطل العائد يسر بالحفاوة التي يلقاها من قبيلته رجالها ونسائها ، ولكن لعل حفاوة الرجال به أبعث لسروره ، وأقدح لمكامن الزهو في نفسه .

ونستطرد في توضيح الصورة التي أوجزناها في مقدمة حديثنا فنقول إن التفاته إلى نواحي الجمال في المرأة كثير في شعره ونثره إلى درجة أستبيح لنفسي معها أن أغفل إيراد الشواهد عليها ، والتفاته إلى زينتها دقيق « صففت شعرها على طريقة القرن الثامن عشر ، وقصت جانبيه على طريقة القرن العشرين » ويقول عن أخرى إنها « ارتدت زي القرويات من سكان الأديرج الأعلى وغطت رأسها بمنديل أحمر موسوم بصور متناسقة لزهرات برية »

أما أنه محبوب من المرأة فشواهد ذلك كثيرة في دواوينه وكتبه وأجتزئ هنا بمقتطفات من حديث نشره بمجلة الإثنين عن ذكريات الصيف ، تحدث فيه عن جارة له في الفندق قابلته في الردهة ... « لم يطل بي النظر ولم يطل بها الوقوف ، فقد ابتسمت لي وأحنيت رأسي تحية لها ، وسرعان ما وجهت لي عبارة لطيفة قائلة :

— منذ أمس وأنا أعجب من هذا الغريب المنفرد بنفسه الذي لا يجد في هذه المدينة الصاخبة اللاهية ما يزعجه عن النوم ويشغله إلى ما بعد منتصف الليل . أقول هذا وأتساءل كيف لا أعجب من نفسي أنا أيضاً ، فقد حضرت ليلتين ، فلم أجد ثمة حذاء واحداً على باب واحد ، ووجدت حذاءك منفرداً بنفسه على باب غرفتك . وقلت لنفسي وأنا أضع بدوري حذائي على باب غرفتي ، فليظل الحذاءان هكذا قريبين من بعضهما في الليل وإن لم يتعارفا . وفي الحق أني عند ما أغادر غرفتي إلى الحمام في الصباح الباكر أجد أن منظر الردهة قد تغير ، فأمام كل باب حذاءان أحدهما ضخم خشن ، والآخر دقيق رقيق ، فأحدث نفسي لم لا يتفق حذاءانا نحن أيضاً فنجدهما ذات صباح على باب واحد ... »

فياما أشد إغراء هذا الفتى الأسمر ، لقد أنسى تلك الحسناء أنها امرأة بسرها أن تُصاد وأن ترى الشباك منصوبة من حولها ... أنساها هذا وأنساها حياءها الغريزي فبدأته بهذا الحديث الطويل واقترحت عليه أن يشاركها غرفتها .

* * *

بقي الحديث عن الصفة الأخيرة وهي الأناقة وتكاد تكون أظهر صفات شعره الموسيقي العذب ، ثم هي تبدو أيضاً في طبع كتبه وتقديم قصائده ، ويرجع السبب في شدة وضوح هذه الصفة إلى أنها ارتوت من رافدين نبعا في صدر شبابه : أولهما الحرمان الجنسي ، وثانيهما الحرمان الأدبي ، لأن المجد الأدبي لم يوات الأستاذ على طه في السن التي كان ينتظره فيها ، بل تأخر عن ذلك . وفي مقال الأستاذ الزيات عن « أرواح وأشباح » ما يكشف عن ذلك الجانب ، فهو يقول إنه منذ إحدى وعشرين عاماً كان يشرف بالاشتراك مع حضرة الأستاذ الجليل الشيخ

مصطفى عبد الرازق على قسم الشعر فى مجلة السفور ، ودفع إليهما البريد بقصيدة لعلى طه « فوجدنا قوة الشاعر الموهوب تطغى على ضعف الناشئ البادئ ، فضننا بها على السل وصححنا ما فيها من الخطأ وقدمت لها ببضعة أسطر تنبأت فيهـا بنبوغ الشاعر ونصحت له أن يرفد قريحته السخية بمادة اللغة وآلة الفن » ... ثم لقيه فى المنصورة ... « وطلب إليه صديقنا أن ينشدنا بعض شعره فنشط لهذا الطلب وارتاح كأنما نفسنا من كربه أو خففنا من عبئه ، وقال : نشرت لى السفور هـذه القصيدة وقدمت لها بهذه المقدمة ... ثم أدى المقدمة عن ظهر الغيب » ... « وكان حين عرفته فى إبان شبابه وكنت حين عرفنى فى عنفوان شبابى »

فى هذه الأسطر نرى على طه وهو ناشئ مغمور ينشط لإلقاء شعره ويرتاح ، ويحفظ عن ظهر الغيب مقدمة فيها تنبأ ونصيحة ، ثم يعرف صاحب هذه المقدمة التى احتفى بها كل الاحتفاء فإذا هو شاب لا يكبره كثيراً فى السن . وتلك مقدمات تصل إلى نتيجة واحدة هى شدة إحساسه بأنه مغمور وأن قريحته فى حاجة إلى أن يرفدها بمادة اللغة وآلة الفن . وربما تأثر بأسلوب الزيات الأنيق ، فما زال يتحرى الأناقة ويتوخاها حتى أصبح أكثر الشعراء المصريين أناقة غير مدافع . وقد واتته الشهرة الأدبية سخية فياضة ؛ ولكن نفسه الحساسة لم تسلم وما كان لها أن تسلم من عقابيل هذا الشعور القديم ، فيقول فى مقدمة إحدى قصائده : « ألقاها الشاعر فى حفل كان من خطبائه الأساتذة الأجلاء : لطفى السيد باشا ، الدكتور طه حسين بك ، مصطفى عبد الرازق بك ، أنطون الجميل بك » . وقد جعل هذا دأبه فى تقديم كل القصائد التى ألقيت فى حفلات عامة كأنه يستكثر بطريقة لاشعورية أن يلقى شعره بين هؤلاء الذين كانوا يملأون أفق الأدب أشعة وشهرة وهو ناشئ مغمور فى المنصورة . بل هو يلجأ إلى أغرب من ذلك فى تقديم الجندول « تغريدة الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب » كأن عبد الوهاب لا يتغنى إلا بجيد الشعر ومختاره ، مع أنه غنى الجندول وغنى بعدها « مانهونش » ، « وبلاش تبوسنى »

وهذا الأثر الذى أتحدث عنه يبدو كذلك فى كثرة حديث الأستاذ على طه عن الشاعرية ومتاعبه لها فى « ميلاد شاعر » و « عرفة الشاعر » و « قبر الشاعر » ... ثم فى حديثه عن نفسه بقوله « الشاعر » ، فهو بهذا وذاك يمدح نفسه وشاعريته عن طريق غير مباشر ولاشعورى

وألاحظ هنا كثرة لجوء الشعراء الشبان إلى الحديث عن أنفسهم بقولهم : « زار الشاعر قرية كذا وقال فيها » مثلاً ، والشاعرية كموهبة لا يجوز أن يفخر بها صاحبها بل يدع للناس أن يتحدثوا عنها ويمدحوه بها وإلا جاز لكل صاحب موهبة أن يتحدث عن نفسه فنسمع مثلاً « قال الذكىُّ فى حديثه » أو « قهر القويُّ خصمه فى الملاكمة » ولن يكون هذا أغرب من ذاك

وأعود فأكرر ما قلته فى أول هـذا المقال من أن الأدب العصرى مدين للحرمان بنبوغ الشاعر الموهوب الأستاذ على محمود طه وبضلال الملاح التائه فى بحار الجمال والخيال ، وهو ضلال حبيب إلى النفوس الرهفة الحس ، وهو أعود بالفائدة من هداية القابعين المتزمتين .

(الاسكندرية) ابو رايد هنا معمد

إلى حضرات المشتركين بالتقسيط

لقد رفعنا ثمن العدد من الرسالة ابتداء من شهر مارس الماضى إلى ١٥ مليما ، والاشتراك فى مصر إلى ثمانين قرشاً ، وفى الخارج إلى جنيه مصرى . أما المشتركون من قبل أول مارس فقد بقى اشتراكهم كما كان : ٦٠ قرشاً فى مصر على شرط أن يسدد المشتركون بالتقسيط بقية أقساطهم فى أول شهر مايو المقبل وإلا عوملوا معاملة المشتركين الجدد

صدر حديثاً كتاب

إبليس يغنى

للأستاذ

صلاح الدين المنجد

لون طريف من الأدب الحديث

وصفحات ممتعات من الحب والفن والجمال

يباع فى المكتبة العربية بدمشق

وثمن النسخة عشرون قرشاً عدا أجرة البريد